أحداث عراقية منسية ليس هذا أوان إثارتها (١ من ٢)

انقلاب على عبدالسلام عارف لم يتم واتهمت القاهرة بإعداده

أمين هويدي *

■ ما دام هذا ليس الأوان، فما الذي يدفع إلى الخوض في أحداث عراقية سابقة؟ الذنب ليس ذنبي لأن البعض كتب عنها في «الحياة» حلقات متتابعة، وعلق عليها البعض في إيجاز على رغم أنها حدثت في ستينات القرن الماضي في العراق الحبيب. المسافة بيننا وبينها طويلة، إذا قيست بما حدث خلالها من أحداث جسام، وخطيرة، إذ كانت مع غيرها سبباً في الموقف المؤسف الذي أصبح فيه العراق ونحن معه الآن.

أغلب من كتبوا كانوا من قادة الجيش العراقي، وراعني أنهم لم يكتبوا عن الاستراتيجيا أو التكتيك أو الحرب، لكنهم كتبوا عن ممارستهم سياسة من طريق التآمر والانقلابات والتصفيات ولو كان ذلك على حساب عدم تفرغهم لزيادة القدرة القتالية للقوات المسلحة التي تولوا قيادتها في الظروف الخطيرة التي كانت تحيط بالعراق وهو واقف على الأبواب الشرقية للأمة العربية التي ما إن تسرب منها العدو حتى أصبح داخل القلعة، والقلاع لا تسقط إلا من داخلها.

تلك الكتابات قدمت توضيحاً كافياً وجلياً، خصوصاً بعد إقامة الجيش العقائدي أيام حكم البعث، عن أسباب هزائمنا ونكساتنا، لأن العبرة ليست بالتسليح الذي يُشترى بالمال ولكن العبرة بالتفرغ والقيادة والتدريب والعلم، فهي التي توفر الجهد والعرق والدم وتحقق الانتصار، فليس هناك وحدات رديئة، ولكن، هناك قيادات رديئة، فالرأس الفاسد لا يبقى إلا على جسم فاسد لأن الجسم الصحيح يلفظه ولا يبقي عليه.

علاوة على ذلك، فإن ما كتبوه اتسم تاريخياً بعدم الدقة، فإن كان هذا من غير قصد فإنه يدل الى أن معرفتهم بمجريات الأمور كانت هامشية، الأمر الذي يتناقض مع ما صوروه من أنهم كانوا اللاعبين الرئيسين في تسيير الأمور، وإن كان ذلك عن قصد فإنه يدل على التلاعب في أحداث التاريخ، وهذا ما يعانيه تاريخنا العربي، لأن كاتب التاريخ لا يصنع الأحداث بل يكتبها كما يراها كآلة التصوير تصور ما أمامها من دون رتوش. وأه من الرتوش التي قلبت الهزائم إلى انتصارات، ما يفسح في المجال للهزائم أن تتكرر ويقف الناس حيارى يتساءلون عن السبب!!

أقف أمام كل ما كتب عند حدثين، لا للقيام بمقارنة فات أوانها، ولكن لأضيف شيئاً إلى ما قيل وربما أتجاسر وأنزل لأصحح شيئاً لما كتب لأنني حضرت وشاركت في صنعهما:

الأولى محاولة انقلاب حدثت في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥ وكنت وقتئذ سفيراً للجمهورية العربية المتحدة في بغداد. والثاني محاولة انقلاب أخرى جرت ضد الحكم العراقي في بغداد وكنت وقتئذ وزيراً للإرشاد القومي. ذهبت إلى العراق ضمن وفد برئاسة المشير عبدالحكيم عامر للتعزية في وفاة الرئيس عبدالسلام عارف في حادث طائرة قيل إنه من صنع القدر وقيل إنه من صنع البشر. وقد كتبت عن الحدثين بالتفصيل في كتابيّ «كنت سفيراً في العراق» و«٥٠ عاماً من العواصف – ما رأيته قلته».

* محاولة انقلاب أيلول ١٩٦٥:

كنت وقتئذ سفيراً لمصر في العراق، ويمكن أن أدعي أنني كنت على علم بكل ما يجري في سراديب السياسة العراقية في ذلك الوقت.

كان الطريق مهيئاً أمام الحكم القومي لتحقيق الأماني التي طالما تمناها الشعب العراقي، ولم يكن هناك ما يشير إلى احتمال حدوث حركات مضادة في القريب العاجل تهدد استمرار الحكم القائم، ولكن، كان الخوف أن ينهار الحكم من داخله لصراعات جارية تحت السطح وخلافات تتعمق بين الفرقاء، وظهر للعارفين ببواطن الأمور أن الكتل أخذت تتربص ببعضها بعضاً. كل منها يريد القضاء على الآخر، وأراد الرئيس عبدالسلام عارف – ضمن سياسته لتفتيت هذه الكتل – استقطاب عارف عبدالرازق آمر القوات الجوية إلى جانبه من طريق صديق الطرفين سعيد صليبي آمر الانضباط العسكري، فعينه رئيساً للوزراء خلفاً لطاهر يحيى كما عين الدكتور عبدالرحمن البزاز سفيراً للعراق في لندن، وكان موجوداً وقتئذ في بغداد، نائباً لرئيس الوزراء.

وقبل أن يعلن النبأ اتصل بي الرئيس عارف في منزلي من طريق هاتف خاص بينه وبيني، وأخبرني بالتعديل المنتظر، كما حدثني البزاز يزف الأخبار، وحرصت في حديثي مع الرئيس على أن أنصح بضرورة لمّ شمل الفئات القومية المتناثرة في الوزارة الجديدة، وحين انتهت المحادثة الغريبة وجدتني اتساءل: ولماذا يتصل بي الرئيس ليخبرني بتعديل لم يعلن عنه؟ وما هذه الثقة المفاجئة بعارف عبدالرازق بعد الفشل المرير في شخصه؟ وتوقعت شراً، وتم تشكيل الوزارة على عجل وفي نية الجميع استغلال ذلك للإطاحة بالرئيس عارف بطريقة سهلة أثناء وجوده في مؤتمر القمة في الدار البيضاء.

وحانت اللحظة التي ينتظرها الجميع حينما غادر الرئيس عارف قاصداً الدار البيضاء يوم ١٩٦٥/٩/١٢ وسط مراسم توديع اشترك فيها كل المسؤولين والسفراء وتولى السلطة بالنيابة أثناء غيابه مجلس مكون من رئيس الوزراء عارف عبدالرازق ورئيس الأركان اللواء عبدالرحمن عارف وحان وقت تنفيذ الخطة التي عدلت مراراً، واستقر الرأي على ان تتم وفق الخطوات الآتية: يتم الاستيلاء على معسكر أبو غريب مساء ١٩٦٥/٩/١٤، في صباح ١٥ يتم الزحف على بغداد للاستيلاء على محطة الإذاعة والسيطرة على المراكز الحيوية في بغداد، تذاع البيانات، تحلق القوات الجوية في سماء بغداد، يتولى عارف عبدالرازق قيادة العملية من مكتبه في رئاسة الوزراء.

استدعى عارف عبدالرزاق كلاً من سعيد صليبي، آمر الشرطة العسكرية وحميد قادر مدير الشرطة ودعاهما للاشتراك في العملية كلاً على حدة، لكنهما رفضا، وعلى رغم ذلك أطلق سراحهما واتصل أحدهم بتدبير من سعيد صليبي بقيادة الانقلاب ليخبرها بفشل الاستيلاء على معسكر أبو غريب ولم يكن هذا صحيحاً، وهنا صدرت التعليمات بتأجيل العملية، وتوقفت عجلة الانقلاب المبتور، وأصبح سعيد صليبي في مقره بالانضباط العسكري سيد الموقف، وحينما تم الاتصال به ليتولى رئاسة الجمهورية رفض. وفي صباح يوم ١٩٦٥/٩/١٥ عقد اجتماع في منزل عارف عبدالرازق لتدارس الموقف، وبعدها غادر هو وعائلته إلى القاهرة على متن إحدى الطائرات الحربية ولم أكن – كسفير لمصر – على علم باتجاه الطائرة إلى القاهرة، وبالتالي لم تكن القاهرة على علم بذلك.

كان ذلك يتم والرئيس عارف هناك في الدار البيضاء، وقد علم بتفصيلات ما حدث من الرئيس عبدالناصر، إذ كنت أرسلت اليه بالتفصيلات قبل أن يتمكن أحد في بغداد من إخطار الرئيس عارف بما حدث، ولعل هذه المبادرة كانت سبباً في الشكوك – التي لا أساس لها – التي سيطرت على الرئيس عارف بعد ذلك. وقطع الرجل زيارته إلى الدار البيضاء ليعود إلى بغداد، ونزل في مطار غرب القاهرة حيث كان في استقباله المشير عبدالحكيم عامر، وأخذ طريقه بعد ذلك إلى بغداد بتنسيق كامل معي لأن طائرات مقاتلة عراقية كانت في انتظار طائرته لإسقاطها، ولم أخبر أحداً بموعد وصول الطائرة خوفاً على حياة الرجل، حتى أن أخاه عبدالرحمن رئيس الأركان كان يعلم حينما اصطحبته إلى المطار أنه ذاهب لمقابلة وفد عسكري قادم من القاهرة على متن إحدى الطائرات الحربية في تمام الساعة الخامسة، وحينما رأيت الطائرة وهي تحلق في سماء المطار أخبرت عبدالرحمن عارف بمقدم أخيه فترك كل شيء وانصرف ليعد حرس شرف لاستقبال الرئيس القادم.

ونزل الرئيس عارف من الطائرة وهو ثابت الجنان وسلم على النفر القليل الموجودين، وأوصلناه في إحدى العربات الصغيرة إلى القصر الجمهوري ليبدأ محاولاته للسيطرة على الموقف، وكانت أول كلمة قالها لي في محادثتي الهاتفية. «رجلكم في الحكاية يا أبو هاشم». كان بشير الطالب أحد مرافقيه قام بالواجب ليوجه الاتهام إلى القاهرة، وكان هذا افتراء. ويا ليت الرئيس عارف يسمع هذا وهو في قبره أمام الله.

وقابلت الرئيس بعد ذلك في اليوم التالي: كانت مقابلة عاصفة، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى مرافقي السوء.

وحدثت ملابسات مؤسفة طوال هذه الأحداث.

قبيل حدوث الانقلاب كنت قد انتويت السفر إلى القاهرة للتشاور، وفعلاً تم حجز مكان لي في الطائرة المصرية التي تغادر بغداد ظهر يوم ١٩٦٥/٩/١٥، وأخطرت القاهرة بذلك كما أخطرت عائلتي بموعد الوصول. وفي يوم ١٩٦٥/٩/١٤ رأيت من اللائق والواجب الاتصال بعارف عبدالرزاق رئيس الوزراء لأخطره بسفري في الغد فاتصلت به في رئاسة القوات الجوية حيث كان يغلب وجوده فقيل لي إنه في مكتبه برئاسة الوزارة، فاتصلت به هناك في نحو التاسعة مساء، وردّ الرجل علي بهدوئه المعتاد فأخبرته بموعد سفري في الغد، وبرغبتي في لقائه قبل السفر، وكان من عادة الصديق «أبو رافع» أن يرحب باللقاء في أي وقت وأي مكان، إلا أنني فوجئت برده «في الصباح يفعل الله ما يشاء»، وانتهت المحادثة وتركت له حرية معاودة الاتصال.

لم أكن أعلم حينما اتصلت مع «أبو رافع» ان عجلة الانقلاب دائرة، إلا أن هذا الاتصال المسجل استغل أسوأ استغلال في الأيام التالية في الوقيعة بين الرئيس عارف والقاهرة من دون تقدير للمصلحة القومية. كان أول وقت علمت فيه بالانقلاب الساعة العاشرة من صباح ١٩٦٥/٩/١٥ من طريق أحد الاصدقاء، فألغيت سفري إلى القاهرة، لمواجهة الموقف ثم أرسلت المعلومات الخطيرة إلى القاهرة لنقوم بإرسالها إلى عبدالناصر في الدار البيضاء، وهذا يفسر كيف كان الرئيس أول من أخطر «أبو أحمد» بحدوث الانقلاب، وفي الوقت نفسه قمت باتصالات عدة: مع سعيد صليبي قائد موقع بغداد فأخبرني أنها محاولة شيوعية أخمدت، ولكن، بعد ذلك أخبرني بالحقيقة، واتصلت بعارف عبدالرزاق في منزله فتحاشى الرد، واتصلت مع عبدالرحمن عارف فكان آخر من يعلم وذكر أنها محاولة شيوعية تمت السيطرة عليها، وأبلغت أبو قيس أن القاهرة وافقت على وضع قواتها تحت تصرفه، إذْ كان لنا قوات مصرية في معسكر التاجي.

وحوالى الساعة الثانية بعد الظهر استقل عارف عبدالرزاق طائرة حربية ومعه عائلته وبعض ضباطه واتجه إلى القاهرة التي لم تكن علمت بالأحداث لأن برقيتي كانت وصلت ولكن لم تحل شفرتها بعد. ولذلك استقبل عبدالرزاق الاستقبال اللائق برئيس وزراء واستضيف في قصر الطاهرة، ولكن، حينما صرح بما حدث رجوه أن يقدر الموقف إذا ما اضطروا إلى استضافته في فندق شبرد، وكانت السيدة زوجتي رحمها الله في مرافقة عارف وأسرته للصداقة الحميمة التي تربط عائلتينا، ولعن الله السياسة!!

بدأ الحرس القومي البعثي ينزل إلى الشارع وتمركز البعض منهم حول مبنى سفارة الجمهورية العربية المتحدة ودار السفير، وقام قائد القوة المصرية بحراسة المنزلين ببعض دباباته.

بعد ظهر ذلك اليوم الطويل أخبرني صديقي عبدالهادي البكار وكان يعمل وقتها في الإذاعة العراقية أن العقيد بشير الطالب الذي يتولى حراسة مبنى الإذاعة يردد وسط ضباطه أن سفير الجمهورية العربية المتحدة هو الذي دبر الانقلاب، وان معه شريطاً مسجلاً لاتصال تم بيني وبين عارف عبدالرزاق مساء يوم الانقلاب، وكانت جريمة أخرى تجرعتها في ذلك اليوم الطويل.

وفي المساء حضر بعض الوزراء العراقيين إلى السفارة ومعهم برقية فيها معلومات عن الانقلاب يريدون ارسالها من طريقنا إلى الرئيس عارف في الدار البيضاء، وأرسلناها لتصل إليه بعد وصول برقيتي الى الرئيس عبد الناصر بعشر ساعات.

وما رأيته قلته والله على ما أقول شهيد..

وفي مقالنا التالي سنحكي عن محاولة الانقلاب الأخرى.

* كاتب مصري. وزير دفاع سابق.

صراع أفكار وذهنية استهلاك

عبدالله بن محمد حميد الدين*

■ يمكن القول ان «السطحية في التغيير» من أبرز المشكلات التي لم تستطع المجتمعات العربية تجاوزها منذ «عصر النهضة». فالتغيير الذي أصابنا على مختلف المستويات وعبر التيارات الأيديولوجية المتباينة، إنما كان في المظهر والشكل فحسب، أما الأسس التي نرتكز عليها في تعاملنا مع الواقع، فتكاد تكون هي نفسها، بقطع النظر عن التنوع الشكلي الموجود بين تلك التيارات، على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وازداد الأمر سوءاً حينما أصبح تقويمنا لأنفسنا يستند في درجة عالية إلى تلك المظاهر والشكليات، من دون الالتفات إلى المضمون القابع والمستتر خلف تلك المظاهر، حيث حمى ذلك المضمون ذاته من نفاد نظرات التأمل التي كان يجب أن تخترق حجبه الكثيفة. بل وصل الأمر إلى أننا بتنا نقيس درجة حضارتنا وتقدمنا من خلال معيار قدرتنا على استهلاك ثمار غيرنا من الحضارات المنتجة للتقدم. أما واقع الحال، فلا يمكن لنا أن نقول إن أرقى مدينة عربية بكل ما فيها من مظاهر مادية وثقافية متقدمة حضارياً على إحدى مدن أفريقيا السوداء. بل قد نجد في بعض الحالات مجتمعات لا تملك من الشكل شيئاً، لكنها من حيث المضمون أغنى وأثرى مما نحن عليه.

إن جميع مجتمعاتنا – المحافظة منها والليبرالية – لا تزال تقليدية؛ تستورد الحداثة من دون أن تستوعبها. فمع جميع المظاهر التي لدينا، لنا أن نسأل: هل مصدر المعرفة عندنا العقل والعلم أم التقليد؟ وهل الحقيقة تتأسس على التجربة والممارسة العقلية والتفكير المنطقي أم أنها تخضع لاعتبارات تتنافى مع ذلك كله؟ هل حكوماتنا ديموقراطية أم فردية؟ هل استطعنا أن نتجاوز حسابات العلاقات الأسرية وسلطة التقاليد القبلية والعشائرية في الحياة العملية؟ هل تخلصنا من الخرافات السائدة بيننا قروناً من الزمان؟... هذه الأسئلة وغيرها تظهر لنا بجلاء أننا لم نبرح مكاننا منذ عقود.

إن المظاهر التي تخفي ما بنا من تخلف حضاري لها وجهان: مادي محض، نحو الطرق والمباني والتقنيات والخدمات المتوافرة وغيرها من الوسائل التي أخذناها ـ وبشيء من التشويه – من حضارات غيرنا، فاستبدلنا بها واقعنا السابق الذي خلا منها. ووجه ثقافي يبرز في رفع شعارات فكرية حديثة ذات منطلقات علمانية غربية باختلاف ألوانها ودرجاتها، في مقابل الشعارات التقليدية القائمة أساساً، والتي يمكن اعتبارها شعارات دينية في محصلة الأمر مهما تنوعت.

وبشيء من التأمل، سنجد أن التباين بين منطق الآخذين بأحد تلك الشعارات يخفي من ورائه وحدة تقودنا إلى ساحة فكرية تجمع الحداثي والشيوعي والملحد والعلماني والإسلامي والصوفي و...إلخ. فنحن إذاً أمام شخص اعتباري واحد يتنوع في مظهره بحسب الظرف الذي يملي شروطه عليه في حين جمود عقلية تعامله مع الواقع.

وما سبق أتى لأننا ومنذ «عصر النهضة» لم نكن أصحاب مدارس فكرية مستقلة، بل لم نستطع الاقتراب من تلك الاستقلالية، وغاية ما قمنا به هو استنساخ أفكار ورؤى وأدوات «الآخر». في مقابل اتجاه رفض «الآخر» محدثاً قطيعة معه، ولكن تاه في ماضيه ليبحث عن حاضر له. والجميع نزل رؤيته وقناعاته المستنسخة على واقعه من دون إعادة إنتاج لها وفق رؤية ذاتية خالصة ومعالجات خاصة من شأنها أن تكون منطلقاً تأسيسياً في تشكيل مدارس فكرية تتسم بالأصالة والمعاصرة في آن وتنطلق من رؤيتنا لواقعنا، وتفاعلنا الإيجابي معه.

ونتيجة لذلك أصبحنا بين سنديان طرف تقليدي تابع للماضي في شكل مطلق يكبّل الإرادة والإبداع باسم الأصالة والتدين، ومطرقة تقدمي تابع للمنظومات الحضارية الغربية ، يكبلهما باسم الحداثة والدخول إلى العصر. ولكن كلاهما لا يقدم للأمة ما تحتاجه هي بل ما كان «نافعاً» لغيرها. إضافة إلى أنهما يقيدان حرية العقل، مع اختلاف طفيف وسطحي في الأسلوب. فأحدهما يقيده لمصلحة عقل الشيخ وما يمثله من استيعاب تام للتراث بكل مشكلاته، والآخر لمصلحة عقل المنظر الغربي وما يمثله من قوة حضارية مادية وفكرية قاهرة. ومن دون شك فالتقدمي، خصوصاً الغربي منه، ستكون له جاذبية أكبر على المدى البعيد، وبالتالي يقل بالتدريج عدد من يتعاطف مع التراث المتعلق بأهداب الماضي، ليس بسبب قوة طرح التقدمي، وإنما بسبب ضعف النموذج التراثي الماضوي.

وفي كل الأحوال فإن الأمر في عمقه يستوي بين انتماء إلى نمط ثقافي تقليدي أو إلى نمط ثقافي حديث، والفرق بينهما يتجلى في قضايا كثيرة لعل من أبرزها «ذهنية الاستهلاك»، فيتحول الصراع الفكري من صراع يراد منه تقديم فلسفة حياتية يمكنها أن تدفعنا نحو خلق واقع خاص بنا، إلى صراع عن مقدار ما يجب أن نستهلكه من الحضارات الأخرى. والشواهد على هذا تتعدد، ولا أريد أن أخص خطاباً من دون آخر بالإدانة بقدر أن أشير إلى جوهر المشكلة، وللمراقب أن يتابع مظاهر المطالبة بالأصالة، وتلك التي تدعو إلى الحداثة، وينظر إلى أي حد يشكل المظهر النتيجة النهائية المطلوبة لكل طرف من الأطراف.

نعم، هناك حالات فردية كثيرة تجاوزت الواقع الذي هي فيه، وسعت لأن تفكر خارج حدود ما رسم لها، وعملت على تجاوز الأسوار المضروبة على عقولها وعقول غيرها، ثم سعت في نقل مشاهداتها إلى من سواها لرفع مستوى إدراكهم إلى سماوات الوعي. وهذه حالات لا تنتمي إلى تيار من دون آخر، بل تتوزع عليها جميعاً، كما تتناقض في ما بينها كثيراً، ولكنها في نهاية الأمر محاولات جادة لتجاوز الشكل والنظر في العمق. ومع ذلك ظلت حالات عزلها واقعها، واكتفى جمهورها بأن أخذ كل منهم الشكل الثقافي الملائم له، تاركاً ما سوى ذلك.

وبناء على ما سبق، فإن تقويمنا لأي صراع فكري بين أطراف متعددة يجب أن يستند أولاً إلى تقويمنا لمدى العمق الذي وصل إليه كل طرف في الانسجام مع فكرته.

* كاتب سعودي.

شراكة مهددة وأخطاء متكررة... الولايات المتحدة واوروبا أمام مفترق يصعب تفاديه

عصام عبدالله *

■ لم تعد الشراكة التاريخية بين دفتي الأطلسي على حالها. قبل الحرب على العراق حدث الانقسام، ليس بين اوروبا والولايات المتحدة فحسب، وانما قسمت اوروبا نفسها إلى «جديدة» و«قديمة».

واستمر ذلك بعد الحرب، وعلقت مشروعية الأمم المتحدة حتى إشعار آخر. وعكس مجلس الأمن الانقسامات نفسها وغيرها، فهل من سبيل لرأب هذا الصدع او بالأحرى ترميمه؟

على مدى ستين عاماً، مثّلت هذه الشراكة قوة وقدرة ليس لأوروبا وأميركا فقط وانما للعالم برمته. وكان شعار «كلنا أميركيون» في مواجهة الإرهاب عقب زلزال أيلول (سبتمبر)، الذي عنون به جان ماري كولومباني جريدة «لوموند» الفرنسية، هو الرد الاوروبي لدين أميركا التي رفعت شعار «كلنا اوروبيون» خلال الحرب العالمية الثانية، وكأنه تجديد للعهد وتأكيده.

ولكن خلال عام واحد، تبدل كل شيء، وما بدا على السطح طوال الحرب الباردة وبسبب التهديد السوفياتي، كان يخفي ما تضطرب به الأعماق التي كشفت عن خلاف اساسي في الثقافة الاستراتيجية بين اوروبا والولايات المتحدة.

فالأولى تخلت عن فلسفة طبعت سلوكها إبان الفترة الاستعمارية التي امتدت اربعة قرون ولم تعرفها الولايات المتحدة. أما هذه الأخيرة فهي تعيد سيرة القوى الامبريالية العظمى التي تحررت من عقدتها أوروبا. وبحسب تعبير دونالد رامسفيلد وزير الدفاع وممثل الصقور داخل الادارة الأميركية الحالية: «لا بد من تحقيق اللقاء بين القرن التاسع عشر والقرن الحادي والعشرين»، ويقصد بذلك العودة الى ما كان يعرف بالنظام البريطاني في ثوب أميركي. أما القرن التاسع عشر فهو قرن الاستعمار المباشر وغياب «ثنائية القطب» في النظام الاقتصادي السياسي.

على أن اخطر ما في هذه التوجهات هو مفاهيمها وخلفيتها التي تعود الى الإرث الامبراطوري الروماني، حيث ترى في «الآخر» و«الغريب» و«البعيد» وجه البربري، وتحاول على غرار الامبراطورية الرومانية ان تختصر العالم الى قرية كونية خاضعة لأحكامها وقوانينها بالقوة.

كان طبيعياً أن تصطدم هذه التوجهات بأوروبا اولاً أكبر الحلفاء الاستراتيجيين، التي استشعرت بحكم ميراثها الفلسفي السياسي، وخبرتها التاريخية والاستعمارية خطورة تطبيقها عملياً، إذ انها ليست نظاماً عالمياً يقوم على قدر من التوافق وانما تنظيم لفوضى يراد لها ان تعم العالم بالقوة. وتشير احدث دراسة اشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، والتي تستشرف أحوال العالم سنة ٢٠١٥، الى تصاعد حدة التوتر السياسي – الاقتصادي بين الولايات المتحدة واوروبا، وهو ما قد يؤدي الى انهيار تحالفهما تماماً.

ففي مقابل «الحرب الاستباقية» التي تروج لها الادارة الأميركية الحالية، منذ العام ٢٠٠٠ وليس عقب زلزال ايلول (طبقت اسرائيل هذه الحرب في ١٩٦٧ و١٩٨٢، مروراً بضرب المفاعل العراقي العام ١٩٨١)، تقترح أوروبا «الديبلوماسية الوقائية» على لسان جان ايلياسون وزير خارجية السويد، إذ ان انفجار الصراعات اصبح السمة المميزة لعالم اليوم، ما يتطلب تطوير «ثقافة الوقاية» التي تلتقط النذر الاولى للانفجارات المتوقعة، وهو ما قابلته أميركا باستخفاف وبررت ذلك «بأن اوروبا ليست ذات شأن عسكري لذا فهي تركز على الديبلوماسية كحل للنزاعات».

الأخطر من ذلك أن الأميركيين يعزون عدم التزام أوروبا الكامل بمكافحة الإرهاب الى معاداة مستترة للسامية! أما الأوروبيون فيرون ان الحرب الشجية ضد الإرهاب لا يمكن لأميركا ان تكسبها على رغم قوتها الساحقة، ذلك أن «الغضب البارد» يتسلل من الحواجز الأمنية والجمركية، ولا يظهر عند تفتيش الحقائب، ولا تصلح معه الحروب الاستباقية.

ويتساءل الأوروبيون حول ما اذا كانت أميركا تواجه التحدي في شكل فاعل أم أن ممارستها وسياستها هي التي تغذي الإرهاب الذي تريد القضاء عليه.

قبل عقدين من الزمان، صك السياسي المحنك والمستشار الالماني البارز فيلي برانت تعبير «السياسة الداخلية للعالم»، وذلك في تقرير «الشمال والجنوب». ونظرة واحدة على هذا التقرير تكشف عن الخطأ التاريخي للغرب الذي ساعد في ظهور الإرهاب وتناميه في العالم، والذي تحاول أوروبا جاهدة تصحيحه، فوسط غبار الصراع الدائر بين الشرق والغرب، اشار برانت الى الصراع المقبل بين الشمال والجنوب مطالباً بنظام عالمي عادل، لأنه الوحيد الكفيل بالقضاء على الإرهاب ورأب الصدع ليس بين اوروبا وأميركا فحسب، وانما في العالم قاطبة. والسؤال هو: هل لدى أميركا من الشجاعة لتسأل نفسها عما ارتكبته من أخطاء متكررة؟.

* كاتب مصري

ألف وجه ألف عام

«المسالك والممالك» لابن حوقل: الجغرافيا وسيلة للدعاوة الايديولوجية

■ «أكثر مياه البلد من الآبار، وهي ثقيلة غير مروية، وانما صرفهم الى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب (الذي يجري حول بلدتهم، قلة مروءاتهم وكثرة اكلهم البصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيهم بالنيء منه، وما فيهم من لا يأكله في كل يوم. وفيها أزيد من ثلاثمئة معلم يؤدبون الصبيان. وهم يرون انهم افضلهم وأجلّهم، وانهم أهل الله وهم شهودهم وأمناؤهم، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم. وانما لجأوا الى هذه الصناعة هرباً من الجهاد ونكولاً عن الحرب».

من نظرة أولى قد يبدو هذا الكلام الذي يرد في فصل خصه المؤرخ والجغرافي ابن حوقل لأهل باليرمو (صقلية الايطالية) من المسلمين، طريفاً ذا نزعة اجتماعية ساخرة وكتب على سبيل النقد الاجتماعي الاصلاحي. غير ان الأمر ليس كذلك تماماً. فابن حوقل، ابن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إذا كان عرف بكونه جغرافياً مارس عمله ميدانياً، وعرف بقوة ملاحظته، فإنه في الوقت نفسه كان رجل ايديولوجيا من طراز رفيع واستثنائي في ذلك الحين. ونحن إذا كنا لا نعرف الكثير عن ابن حوقل (في مجال حياته الشخصية)، فإننا نعرف على الأقل أنه منذ اعتنق التشيّع وراح يناصر الفاطميين الحاكمين مصر في ذلك الحين، إذ ترك العراق منشأه ومسقط رأسه وبدأ يجول في البلدان، صارت الكتابة بالنسبة اليه وظيفة فكرية سياسية... ولم يعد طلب المعرفة – أو الفضول – دافعه الأساسي لتلك الجولات التي قام بها طوال ثلاثين عاماً من حياته، وقادته الى أواسط آسيا، كما الى المغرب والأندلس وشرق أفريقيا، ناهيك بالمناطق الأوروبية التي كانت واقعة تحت الاحتلال الإسلامي (مثل صقلية والأندلس وغيرهما). كان الرجل صاحب موقف سياسي، ومن هنا تلك الدقة والتفاصيل الآنية والحيوية التي تطغى على كتاباته ولا سيما على كتابه الأساسي «المسالك والممالك» أو «صورة الأرض» الذي اشتغل عليه طوال حياته، وأعاد صياغته ثلاث مرات على الأقل (مرة قبل العام ٣٥٦ وأخرى في العام ٣٦٧، وثالثة أخيرة حوالى العام ٣٧٨).

وهذا الأمر الأخير يشي طبعاً بهدف ابن حوقل وغايته السياسية، فهو، إذ راح في كل مرة يطور كتابه ويعدّله ويضيف اليه على ضوء ما يستجد من معلومات وملاحظات كان يعايشها ميدانياً، كان من الواضح أنه انما يبتغي من كتابه أن يكون أشبه بتقرير رجل استخبارات يدرس «أراضي العدو» ويورد تفاصيل ما يحدث فيها، بالوقائع والأرقام، لأنه يريد ان يرسم لتلك الأراضي صورة واضحة. لماذا؟ عن هذا السؤال يجيبنا الدكتور شوقي ضيف قائلاً: ان ابن حوقل، إذ تشيّع وناصر الفاطميين، تحول داعية لهم واتجه بكتابه «المسالك والممالك هذه الوجهة السياسية». ويتضح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهم الفاطميين ان يستولوا عليها، مثل الأندلس وصقلية، حيث من الواضح ان ما يهمه من خلال وصفه لهاتين المنطقتين في شكل خاص هو «ان يشير الى غناها وخصب أراضيها وعظم جبايتها، كما يشير الى ضعفها الحربي»، مؤكداً، في سياق حديثه ان «من السهل أن يفتحها الفاطميون فتتحول هذه الديار الى ملكهم وتلك الأموال الى خزائنهم».

● والحال انه حسبنا للتيقن من هذا أن نقرأ ما كتبه، مثلاً، عن الأندلس حيث يقول: «الأندلس جزيرة كبيرة فيها

من صور النشاط الاقتصادي في الديار الإسلامية.

عامر وغامر(...) ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته(...). ومما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضريبتها كل سنة مئتا ألف دينار... هذا الى صداقات البلد وجباياته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الصادرة والواردة والجوالي والرسوم على بيوع الأسواق. ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال». ومن الواضح هنا أن هذه السطور الأخيرة انما تحمل في طياتها استهانة بشأن الأندلسيين (الواقعين تحت سيطرة الأمويين في ذلك الحين) ما يمكن أن يشكل دعوة واضحة فحواها ان «من السهل ان يفتحها الفاطميون». ويتابع ابن حوقل متحدثاً عن قرطبة عاصمة ملك الأندلس: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس بجمع المغرب عندي لها شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق(...) وان لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع، فليس لجيوشهم حلاوة في العين، ولا علم بقوانين الفروسية وقوانينها ولا بالشجاعة وطرقها. وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد. ومما يدل على ذلك أني لم أر قط بها أحداً أجرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركب، ولا يستطيعون ذلك ولا بلغني عن أحدهم، وكل ذلك لخوفهم من السقوط الى فشل فيهم عند لقائهم...».

● ان مثل هذا الشرح والتأكيد يرد بوفرة لدى ابن حوقل، ولا سيما في تلك الأجزاء من كتابه التي يكرسها لمناطق كان يرى، هو، في ذلك الحين أن من الممكن للفاطميين الاستيلاء عليها. ومن هنا تتسم معظم كتابة ابن حوقل بواقعية راصدة، ما جعل بعض الباحثين المعاصرين يشبهون كتابته الجغرافية المبكرة، بكتابات أصحاب مدرسة «الوليات» الفرنسية، ولا سيما في مجال ربطه الوثيق للجغرافيا الصرفة بالاقتصاد، وهو أمر كان يعتبر جديداً في ذلك الحين، حيث ان معظم الجغرافيين العرب، ولا سيما منهم كبيرهم الاصطخري، الذي كان أستاذاً لابن حوقل، وقام جزء كبير من عمل هذا الأخير على تطوير كتابات أستاذه هذا، والاستفاضة في تطويرها، عيانياً واقتصادياً، مستفيداً من أسسها التقليدية، معظم الجغرافيين العرب، كانت كتابة الجغرافيا بالنسبة اليهم وصفاً طوبوغرافيا واهتماماً بالحياة الثقافية للمناطق التي يتحدثون عنها. مع ابن حوقل، صارت الجغرافيا، جغرافيا سياسية واقتصادية بالمعنى الحديث للكلمة. فابن حوقل كان همه الأساس في كتابه أن يرسم لوحة واضحة للمناطق التي يتحدث عنها. واضحة وراهنة أيضاً، بل مطوّرة ومعدّلة على ضوء التغيرات كما أسلفنا. ما يهمه في الأساس كان «هنا» و«الآن»، ما يعني ان الملاحظات الاقتصادية التي كان يدونها، بعد معايشته اياها، كانت توفر له الحقل المعرفي المثالي لهذا النمط من التحليل. ابن حوقل كان يرجح المعلومات والمشاهدات في اطار عام، تتخذ فيه ملاحظاته حول الزراعة والصناعة وأحوال المال والتجارة، مكانة أساسية في الصورة التي يرسمها، من دون أن يفوته في معظم الأحيان أن يرسم الخلفية التاريخية – والتحليلية بالتالي – لما يقدم من معلومات، رابطاً الأسباب بالنتائج، ما يجعله في ذلك الحين، واحداً من الجغرافيين العرب والمسلمين القلّة – حتى وان كان المقدسي، معاصره، وتلميذ الاصطخري هو الآخر، يشاركه في بعض نواحي تميزه – الذين اشتغلوا بدقة ووضوح على ما نطلق عليه اليوم اسم «الصيرورة الاقتصادية».

وفي هذا الاطار لم يكن غريباً أن يقال عن ابن حوقل دائماً انه «إذ قرأ ما سبقه وعاصره من كتب الجغرافيا، وشغف بهذا العلم، صمم على أن يضع فيه كتاباً كبيراً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه، وانما يأخذه عن عينه ومشاهداته في العالم الإسلامي» وهكذا طاف في هذا العالم أكثر من ثلاثين سنة، وعاش سنين عديدة في المناطق الأساسية – المفاتيح، قبل أن يجد الدوافع الحقيقية التي مكنته من وضع كتابه الفريد من نوعه، والذي لن يكون من المغالاة القول انه ينتمي الى عصرنا بقدر ما ينتمي الى عصره.

ابراهيم العريس